أثر طاغور (١)

في ذهن كاتب انكليزي بعد مقابلته

[كتبت خاصة للمقتطف

— ١ —

ليس باليسير ان توصف العظمة حقّ وصفها :

يقف الانسان وقفة روعة وتهيّب أمام مشهد غروب الشمس او عنان جبل ذاهب في الفضاء او سهل فسيح يغمره الثلج . فاذا حاول ان يصف شعوره عجزت عن ذلك الألفاظ

هذا هو الشعور الذي يملك على الانسان عقله ونفسه في مجلس شخصية فذة . اننا نحسّ عماني القوة تنطلق منها حتى نكاد نلمسها فاذا حاولنا وصفها وتحليلها إنبا بالخيبة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور مقلقاً هدّاماً لكرامتنا النفسية اذ يجعلنا نحسّ بضعفنا وعجزنا على انهُ يضرب حولنا ، احياناً ، نطاقاً من الطمأنينة والسلام ، ويبعث في نفوسنا شعوراً بالجميل وتقديراً للنعمة ، اذ نحسّ بأن ضعفنا بالغاً ما بلغ ازاء هذه الشخصية الطاغية علينا بقوتها، لا يمنعنا عن السمو بعيوننا الى الاعالي

وعظمة السر رابندرانات طاغور ، الشاعر والمعلم والفيلسوف الهندي ، من هذا القبيل انك تشعر بكون الكون في مشيته الوقورة . انك ترى روعة الزمن وقد تجرّد من عنوه في خصلة الفضة وفي قسمات وجهه التي تحسبها منحوتة في العاج . انك تسمع موسيقى الاجرام في غنة صوته الموسيقي . انك تثق بأن الثقافة لا تعرف حدوداً من الوطن والجنس اذ تصغي الى حديثه الانكليزي الفصيح ، وتتململ من معرفته الوافية بأدب غير أدب قومه وفن غير فنهم وحضارة غريبة عن حضارتهم

— ٢ —

قال : كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي قد تنعم بنعمة الخلود ؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل واحوال مهدت له السبيل في عصور سابقة ، وهو بدوره يمهد السبيل لبيان جديد في عصر تالٍ . فلا بد لنا من موضع للنظر الشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصاح عن نفسيته . والمسافة في الزمان والمكان

(١) ولد في ١٨٦١ وتوفي ٧ اغسطس ١٩٤١

لا مندوحة عنها لهذا الحكم لان القرب يحير البصر لكثرة ما يراه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل وتتعذر رؤية الكل كلاً لا أجزاءً متفرقة من كلٍّ

سألني كثيرون عن أحب الشعراء اليَّ وأي رجل أعظم الرجال في نظري . وانا لا نستطيع ان نحصر التفوق في شخصٍ واحدٍ لكثرة المتفوقين . تلقيت علومي في العصر الفكتوري فأنا أجيد لغته وأفهم أدبه ولكنني لا أستطيع ان أفهم تعبيرات الادباء المحدثين . قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها أشعار شلي وكيتس [1] ولكنني لا أفهمها

ان لغة كل أمة كالأمة ذاتها . فاما ان تتقدم وإما ان تموت . انها لا تستطيع ان تجمد في مكانها . فالانكليز يتكلمون بلغة تشوسر [2] الآن . ولو أتيح لتشوسر ان يطلع على أسلوب الكتابة في العصر الاليصاباتي — عصر شكسبير وفرنسيس باكون — لحسبهُ وطانة محدثة . هكذا ينظر أدباء العصر الفكتوري الى أساليب الادب الحديثة

وفي لغة كل شعب تتردد أصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري في الريف والطمأنينة في البعد عن المدن . ونحن الآن في ضمار عهد لطين السندان فيه واصطخاب الآلات أعظم شأنٍ . فالنغمات الناعسة الغنائية التي كنا نشدها في امسنا الغابر قد انقضى عهدها وحلت محلها العبارات المقتضبة والشعر المطلق في يومنا هذا القليل المضطرب . وليس هذا بالأمر الذي يؤسف له . فكل فترة يركو فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحةٍ تخلد فيها النفس الى السكينة لتستجمَّ قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصفت أساليبها بالعنف وبالرجوع الى السذاجة مستوحية دوافع البشر الاولية في الخلق والابداع

***

ان الثقافة الحقيقية لا تعرف حدوداً من البلدان والاجناس . فهي تحيط بالأرض كالجو وكما تقع في الجو على مناطق مختلفة من حرارة ورطوبة ولكنها على اختلافها متصلة الاطراف تقع كذلك في الثقافة على مناطق متصلة رغم اختلافها . فالشرق والغرب على اختلافهما متصلان حتى ليفنى أحدهما في الآخر في بعض النواحي . لان العالم لا يعرف الآفاق الضيقة

فالشرق تغلب عليهِ الطمأنينة يخالطها الادراك العميق الذي يؤمن بأن الزمن هو الكاشف العظيم . والغرب وثّاب متحمس يدفعهُ عنف الشباب

على ان كلا الشرق والغرب باحثان وجوهر الثقافة والجمال الذي يبحثان عنهُ واحد

(١) علي وكيتس شاعران انكليزيان من أكبر شعراء القرن التاسع عشر

(٢) شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

الغرب : يقيم الحدود بين الطبيعة والطبيعة البشرية
والشرق : يؤمن بالوحدة الاساسية في كل الخليقة
الغرب : كعالم يشرح الطبيعة
والشرق : كفيلسوف يسلّم بها
الغرب : يرى بعيون الشباب الوثّاب : عيون المادة
والشرق : يتأمل بعيون الروح التي لا يدركها الهرم
ومع ذلك فالذي يشاهدانه واحد — وهو الوحدة الخالدة — وحدة الانسان والعالم الذي يعيش فيه

***

كلما تقدمنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع أن ننظر الى الاشياء نظراً مشارفاً فنفهم عنها . فيحملنا ذلك على تفضيل أيام حداثتنا الزاهية على أيام كهولتنا أو شيخوختنا التي نعاني اعباءها فنشير الى أيام الشباب متحسرين : — كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع أن الحال لم تَسُءْ والايام الماضية لا تفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا من رؤية أثرها رؤية مجملة شاملة . وهذا ما لا نستطيع أن نفعله في أيامنا هذه لاننا مازلنا فيها إن رسم الحائك لا يُرى إلاّ متى تمت حياكة الثوب

ويغلب أن تكون الشهرة نتيجة الفرصة السانحة وكثيراً ما تشبهها في مداها !

قد يكتب أحد الشعراء نشيداً وطنيًّا في أثناء نشوب حرب طاحنة فتعصف بالجمهور كما تعصف الريح في سطوره ونبراته صوراً للشعور الذي يجول في صدور أفراده . فيحكم على ناظمه بالنبوغ والتفوق ويرفعه على الاكتاف وتصبح كلماته تتردد في كل نادٍ وتسمع أنغامه الحماسية في وقع الاقدام العسكرية !

ثم تضع الحرب أوزارها ويمتد رواق السلام فينجب شاعر جديد ينشد أفراح الطمأنينة ومسرات السكينة فيهب نسيمها اللطيف على صدور اكتسحتها من قبل الحماسة في الحرب ، فتُنسى الموسيقى العسكرية التي وضعها الاول ويتاح لمغنٍ جديدٍ ان يرتفع فوق أكتاف الجماهير الى ذرى الشهرة . ولكن ما أقل الذين يتاح لهم ان يكون نصيبهم التفهم والتقدير من أبناء جيلهم وأبناء الاجيال التالية . ومع ان الغرب يمدّ أيدي الجشع ترى الشرق قابعاً قانعاً منتظراً تحقيق غرضه — وغرضهما معاً انما هو — الحق !

— ٣ —

قال الكاتب : ولما غادرت دار طاغور أدركت أنني في حديثي معهُ تكلمت مع مَنْ يعلم